

جمال الدين الأفغاني شخصية يصدق عليها قول القائل: ملأ الدنيا، وشغل الناس، فهو شخصية شغلت الباحثين في عصره حيا، وبعد وفاته، فهو الرجل الذي أقض مضاجع الطغاة، وألهب النفوس والعواطف، وكان له فضل كبير في تفتح كثير من عقول المصلحين من بعده، وقطع أشواطا هائلة في مسيرة الإصلاح الديني والسياسي، مما مهد المناخ لمن بعده لبذر بقية بذور الإصلاح، بل وجني بعض ثماره، ولذا ليس غريبا أن يكون معظم رواد الإصلاح من بعده من تلامذته المباشرين، أو ممن تأثروا بمدرسة الرجل الفكرية، من أمثال: محمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبي، والمراغي، وشلتوت، وحسن البناء، وغيرهم كثير.

يقوم مشروع جمال الدين الأفغاني في الإصلاح على أركان أربعة: أولها: الالتزام بمبادئ الإسلام، والافتداء بسلف الأمة. والثاني: تحرير الأمة من الاستبداد الداخلي والخارجي. والثالث: توحيد الأمة في جامعة إسلامية. والرابع: الأخذ بأسباب القوة من العلوم والنظم الغربية.

وسوف أركز في كلمتي عن جهود الأفغاني رحمه الله في الإصلاح السياسي، وأهم المرتكزات الفكرية التي قام عليها مشروعه السياسي، وأجملها في ركيزتين اثنتين، يتفرع عنها كثير من الركائز الفرعية، أولهما: تحرير إرادة الأمة الفردية والجماعية، وثانيتها: العمل على وحدة الأمة.

أولا: تحرير إرادة الأمة:

الركيزة الأولى التي نلاحظها في مشروع الإصلاح السياسي عند جمال الدين الأفغاني، هي: تحرير إرادة الأمة، سواء على مستوى الأفراد والجماعات، فقد كان تحرير إرادة الفرد عند الأفغاني مطلبا ملحا بالدعوة إلى تصحيح الفهم لقضية القضاء والقدر، هذا الفهم الذي أدى إلى أن يعتقد المسلم في عهود التخلف والركود أنه محكوم في إرادته بما يرسم له مسبقا، فهو في ذلك مسلوب الاختيار، وبالتالي فإنه

يتبع الأحداث، ولا يصنعها، وليس له فيها أي يد أو دور، وترتب على ذلك أن قلت حركته وسقط في فخ التواكل.

واتبع الأفغاني في تصحيح هذا الفهم أسلوب المواعمة بين القضاء والقدر من جهة، وبين اختيار الإنسان من جهة أخرى، فهما أمران متكاملان لا متناقضان. فقضاء الله وقدره ثابتان، ولكن مع الإيمان بهما فإن الإنسان يشعر بأنه مختار لما يريد، ويلاحظ ذلك في نفسه وغيره، إذ هو ليس مطلعاً على الغيب المقضي به، والإيمان بالقضاء والقدر يكسب الإنسان المسلم الانطلاق والجرأة، ويحرره من الخوف على النفس، أو الرزق، أو التشريد والمصادرة، ويحرره من الوهن واليأس والقعود، والاستسلام للأمر الواقع بدعوى التسلم بالقضاء والقدر، بل عليه التخطيط لمستقبله والخروج من أزمته وهذا هو التوازن الذي نادى به الأفغاني في مخاطبة الفرد المسلم كي يتحرر من هذه الأوهام.¹

أ . على مستوى العلماء:

وقد بدأ الأفغاني في تحرير إرادة الأمة أفراداً عن طريق العلماء بداية، فتواصل مع علمائها، وركز على قادتها، والمؤثرين في توجههم، فقد لاحظ الأفغاني أن الإنجليز بدأوا يمهّدون لاستعمار إيران، وكثير من بلاد المسلمين، فأراد قطع الطريق عليهم، فوجه خطاباً إلى أكبر رمز ديني في إيران، وإلى جميع علمائها، يقول فيه:

(إن هذا الكتاب خطاب إلى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت، وحيثما حلت، وضراعة تعرضها الأمة على نفوس زكية تحققت بها، وقامت بواجب شؤونها كيفما نشأت، وفي أي قطر نبغت، ألا وهم العلماء فأحببت عرضه على الكل وإن كان عنوانه خاصاً.

¹ انظر: الأفغاني ومحمد عبده: العروة الوثقى ص 89 وما بعدها. نقلاً عن: للشهود الحضاري للأمة الإسلامية.. مشاريع الإسهاد الحضاري للدكتور عبد المجيد النجار (107/3) بتصرف شديد.

وإن الأمة قاصيها ودانيها، وحضرها وباديها، ووضعها وعاليها قد أذعنت لك بهذه الرئاسة السامية الربانية، نعم لا برهان للعامة فيما دانوا إلا استقامة الخاصة فيما أمروا، فإن وهن هؤلاء في فريضة، أو قعد بهم الضعف عن إمطة منكر لاعتور أولئك الظنون والأوهام، ونكص كل على عقبيه مارقاً من الدين القويم، حائداً عن الصراط المستقيم.

وبعد هذا وذاك أقول: إن الأمة الإيرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التي أذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين، وتناول الأجنبي على حقوق المسلمين، ووجوم الحجة الحق. إياك أعني. عن القيام بنصرها وهو حامل الأمانة، والمسؤول عنها يوم القيامة - قد طارت نفوسها شعاعاً وطاشت عقولها، وتاهت أفكارها ووقفت موقف الحيرة. وهي بين إنكار وإذعان وجحود وإيقان. لا تهتدي سبيلاً. وهامت في بيداء الهواجس في عتمة الوسوس، ضالة عن رشدها لا تجد إليه دليلاً، وأخذ القنوط بمجامع قلوبها، وسد دونها أبواب رجائها، وكادت أن تختار - إياساً منها - الضلالة على الهدى، وتعرض عن محجة الحق وتتبع الهوى.

وإن آحاد الأمة لا يزالون يتساءلون - شاخصة أبصارهم - عن أسباب قضت على حجة الإسلام. إياك أعني. بالسبات والسكوت، وحتم عليه أن يطوي الكشح عن إقامة الدين على أساطينه، واضطره إلى ترك الشريعة وأهلها، إلى أيدي زنادقة يلعبون بها كيفما يريدون، ويحكمون فيها بما يشاؤون، حتى إن جماعة من الضعفاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا في الحجة ظن السوء، وحسبوا الأمر أحبولة الحاذق وأسطورة الملق؛ وذلك لأنها ترى. وهو الواقع. أن لك الكلمة الجامعة، والحجة الساطعة، وأن أمرك في الكل نافذ، وليس لحكمك في الأمة منابذ، وأنك لو أردت تجمع آحاد الأمة بكلمة منك. وهي كلمة تتبثق من كيان الحق إلى صدور أهله. فترهب بها عدو الله وعدوهم، وتكف عنهم شر الزنادقة، وتزيح ما حاق بهم من

العنت والشقاء، وتنشلهم من ضنك العيش إلى ما هو أرغد وأهنى، فيصير الدين بأهله منيعاً حريزاً، والإسلام بحجته رفيع المقام عزيزاً.

وانك أيها الحجة إن لم تقم بنصر هذه الأمة، ولم تجمع كلمتها، ولم تنزعها بقوة الشرع من يد هذا الأئيم، لأصبحت حوزة الإسلام تحت سلطة الأجانب، يحكمون فيها بما يشاؤون، ويفعلون ما يريدون، وإذا فاتتك هذه الفرصة أيها الحبر ووقع الأمر وأنت حي لما أبقيت ذكراً جميلاً بعدك في صحيفة العالم، وأوراق التواريخ . وأنت تعلم أن علماء إيران كافة والعامه بأجمعهم ينتظرون منك . وقد خرجت صدورهم وضائق قلوبهم . كلمة واحدة يرون سعادتهم بها، ونجاتهم فيها ... ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها ويتركها سدى).²

يلق العلامة الشيخ محمد رشيد رضا على رسالة الأفغاني لحجة الإسلام في إيران قائلاً: إن هذا الكتاب نفخ روح الحماسة والغيرة في ذلك العالم العظيم، صاحب النفوذ الروحي في الأمة الفارسية، فأفتى بحرمة استعمال التبناك، وزراعته، وأذاع العلماء فتواه بسرعة البرق، فخضعت لها أعناق الأمة حتى قيل: إن الشاه طلب في صبيحة يوم . بعد وصول الفتوى إلى طهران . النارجيلة (الشيشة) فليل له: إنه ليس في القصر تنباك لأننا أتلناه. فسأل عن السبب مبهوراً فليل له: فتوى حجة الإسلام، فقال: لم لم تستأذنوني؟ قيل: إنها مسألة دينية لا حاجة فيها إلى الاستئذان!! واضطر بعد ذلك إلى ترضية الشركة الإنكليزية على أن تأخذ نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز.³

سلاح المقاطعة:

ما سلف من رسالة الأفغاني لحجة الإسلام في إيران، واستجابة العامة لنداء العلماء في إيران بمقاطعة التبناك، وهو بضاعة إنجليزية، هو بعينه سلاح المقاطعة

² انظر: مجلة المنار العدد المجلد العاشر الجزء الحادي عشر الصادر في ذي القعدة سنة 1325هـ . يناير سنة 1908م.

³ انظر: المصدر السابق.

التي يغيب أحيانا عن أمتنا الآن قيمته في مواجهة الأعداء الذين يتحرشون بمقدساتنا، ويعتقدون أننا عجزة أمام عنجهيتهم وسفالتهم.

وللأسف يؤرخ بعض الكتاب المعاصرين لفكرة المقاطعة، ومدى نفعها وأثرها، بتجربة المهاتما غاندي، وأنه أول من دعا لاستخدام هذا السلاح ضد المستعمر الإنجليزي، وهذا التأريخ غير صحيح النسبة، فإن أول داع معاصر، ومناضل سياسي دعا لاستخدام سلاح المقاطعة بوجه عام، هو جمال الدين الأفغاني، كما رأينا.

وقد قصد الأفغاني باستخدام هذا السلاح؛ سلاح المقاطعة: تحرير إرادة الأمة، وبخاصة أفرادها، وتربيتها على عدم العبودية للمحتل، والتخلص مما يجعلها ذليلة له، وربما بدأ الأفغاني بالأصعب وليس الأيسر كما يتصور، فإن الإنسان عندما يعتاد على تناول أمر من الأمور الترفيحية له، حتى يصير عادة ملازمة له، يصعب التخلص منه، كما في الدخان، ومعلوم أن من يقع في أسر الدخان يصعب عليه التخلص منه سريعا.

ثم تبعه بعد ذلك علماء آخرون تأثروا بمدرسته، منهم الشيخ محمود خطاب السبكي، الذي أراد محاربة الإنجليز اقتصاديا، فأسس مصانع للنسيج والغزل، لأن الأقمشة آنذاك كانت تصنع في إنجلترا الدولة التي احتلت مصر.

وتأثر بهذا السلاح ومارسه الشيخ حسن البنا، فأصدر فتواه سنة 1947م بتحريم شرب الكوكاكولا، وقد بين أن التحريم والنهي ليس لحرمة المشروب لذاته، بل لأنه منتج أمريكي، وأمريكا تدعم إسرائيل.

القضاء على موجة التقليد الغربي والإعجاب به:

(لم تكن الكارثة الكبرى هي مجرد استغلال الدول الأوروبية لموارد البلاد الإسلامية، أو تمكنهم من بسط نفوذهم السياسي أو الثقافي، بل كانت الكارثة

العظمى هي أن روحا من الإعجاب بهؤلاء المستعمرين قد أخذت تسري بين الشعوب الإسلامية. وأخذ جو من الشك يعم أنحاء الشرق، وظهرت دعوة قوية إلى اتباع الغربيين، وتقليدهم في أساليب حياتهم. دون نظر إلى ما كان منها صالحا أو فاسدا. وكان هذا كله مؤديا، أو سيؤدي لا محالة، إلى ضعف إيمان الشرق بنفسه، أو زعزعة ثقته بمبادئه وثقافته. وإذا كان الناس على دين ملوكهم، فقد كان هناك أيضا عاهلان في الشرق على رأس هذه الدعوة، بل كانا يبذلان كل جهد في سبيل إقناع الناس بها، ويضحيان بالأموال ليروجا لها، هما: السلطان عبد العزيز، خليفة آل عثمان في تركيا (1861م . 1874م) والخبديوي إسماعيل حفيد محمد علي في مصر (1863م . 1879م) فقد كان كل منهما مفتونا بأوروبا، مغرما بما شاهد من المظاهر المادية، مدفوعا إلى تقليد الغربيين في فنون عبثهم ولهوهم، حتى جهر الأخير. وهو يشعر بالزهو والافتخار. أن: (مصر قطعة من أوروبا) وكان هذا هو المبدأ الذي عمل له، كما عمل شبيهه العثماني، وإن كانت أوروبا لا ترضى. نظرا لما كانت عليه حاله وحال حكومته من تأخر. إلا بأن يكون ذليلا لها. إن قبلت. لا قطعة منها).⁴

أدرك الأفغاني مدى الخطر الذي كان يتهدد العالم الإسلامي من جراء هذه الموجة، وسبر عمق الهوة التي كان يدفعه إليه قادته المفتونون، وزعماءه الجهلة، ليتزدد فيها، فنتحطم قواه المعنوية تحطيمًا لا يرجى لها إصلاح بعده. فقام الأفغاني برسالة إيقاظ هذا العالم المغتر بثقافة وتقاليد المستعمر الأجنبي، ومقاومة هذا التيار الذي يسعى لنشر هذه الثقافة، التي من شأنها تؤدي إلى التهلكة.

تحرير الإرادة الجماعية:

وحرية الإرادة الجماعية يدخل تحته عدة معاني، ومن تلك المعاني: الشورى، والعدالة، والأمن، والتحرر من الاستبداد السياسي، والحكم المطلق.

⁴ انظر: تطور المجتمع العربي في العصر الحديث للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس ص 136، 137.

لقد كان جمال الدين الأفغاني ألمع من حمل راية تحرير الأمة من النفوذ الأجنبي في عصره، فقد سخر حياته لذلك، وحفلت كتاباته بالدعوة إليه، وكان كأنما ينظر من وراء حجب حينما أنذر العالم الإسلامي باكتساح وشيك من الغرب المسيحي، فما هي إلا سنوات حتى تم ما أنذر به. لقد كان يرسلها صيحات مدوية داعيا الأمة إلى التحرر من التسلط الأجنبي، وذلك من مثل قوله: "ألا أيها النائمون تيقظوا، ألا أيها الغافلون تنبهوا، يا أهل الشرق والناموس، ويا أرباب المروءة والنخوة، ويا أولي الغيرة الدينية، والحمية الإسلامية، ارفعوا رؤوسكم تروا بلاء منصبا على أوطانكم، وما أنتم ببعيد منه، ولا بمعزل عنه، إن لم يكن أصابكم اليوم فسيصيبكم غدا.. أصبحتم على شفا جرف المذلة، ويحشى أن يقذف بكم بعد قليل في جحيم العبودية"⁵.

ج . التحرر من الاستبداد وتسلط الحاكم:

كما غرس في الأمة تحرير الإرادة من الاستبداد والتسلط من الحاكم، فأرسل رسالة إلى علماء إيران مرة أخرى، يحرض على شاه إيران، الذي عرف بظلمه وجبروته، فكان مما جاء في رسالته:

(وإذا وقع الخلع) وتكفيه كلمة واحدة ينبض بها لسان الحق غيرة على دينه، فلا ريب أن الذي يخلف هذا الطاغية لا يمكنه الحيدان عن أوامرهم الإلهية، ولا يسعه إلا الخضوع بعبثتكم؛ عتبة الشريعة المحمدية . كيف لا وهو يرى عيانا ما لكم من القوة الربانية التي تقلبون بها الطغاة عن كرسي غيها . وإن العامة متى سعدت بالعدل تحت سلطان الشرع؛ ازدادت بكم ولعا، وحامت حولكم هياما، وصارت جميعا جندا لله، وحزبا لأوليائه العلماء.

⁵ انظر: العروة الوثقى ص 21، 22.

ولقد وَهَمَ من ظَنَّنَ أن خلع هذا - الحاربية - لا يمكن إلا بهجمات العساكر، وطلقات المدافع والقنابل، ليس الأمر كذلك، لأن عقيدة إيمانية قد رسخت في العقول، وتمكنت من النفوس، وهي إن الراد على العلماء راد على الله، هذا هو الحق وعليه المذهب. فإذا أعلنتم - يا حملة القرآن - حكم الله في هذا الغاصب الجائر، وأبنتم أمره تعالى في حرمة إطاعته، لانفض الناس من حوله، فوقع الخلع بلا جدال ولا قتال.⁶

بل ذهب أبعد من ذلك بتحرير الإرادة الجماعية من استبداد الحاكم، فدعا إلى أن تتمسك الشعوب بحق الانتخاب للحاكم، ومبايعته على الحرية والشورى، وتكون هذه المبايعة بمثابة عهد بينه وبين الشعوب، فإذا حنث في عهده، ونقض بيعته بأن انقض على الشورى، أو صادر الحرية، كان لهذه الشعوب معه شأن آخر قال عنه: (إذا أتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق يحكمه بأهله. ذلك الرجل إما أن يكون موجودا، أو تأتي به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي⁷، وتتوجه على هذا القسم، وتعلنه له، يبقى التاج على رأسه، ما بقي هو محافظا أميناً على صون الدستور، وأنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة: إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس؟!⁸

الأفغاني والمستبد العادل:

وينبغي هنا أن نقف وقفة قصيرة مع أمر شاع واشتهر نسبته إلى جمال الدين الأفغاني، وهو أنه كان ينادي بالملك المستبد العادل، وأنه لا خلاص للأمة إلا أن يكرمها الله عز وجل بمستبد عادل يفرض عليها الإصلاح فرضاً!!

⁶ انظر: مجلة المنار العدد المجلد العاشر الجزء الحادي عشر الصادر في ذي القعدة سنة 1325 هـ - يناير سنة 1908 م.

نقلا عن: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده الجزء الأول.

⁷ أي الدستور.

⁸ انظر: الأعمال الكاملة للأفغاني بتحقيق د. محمد عمارة (333/2).

وأول من قرأت له يدافع عن الأفغاني ونفي هذه الفكرة عنه، هو الأستاذ سعيد رمضان رحمه الله في مجلته (المسلمون)⁹، ثم بعد ذلك الدكتور محمد عمارة في كتابه (جمال الدين الأفغاني.. المفترى عليه).

وهذه فرية لا تصح نسبتها للأفغاني بحال من الأحوال، وكيف لا وكلماته ناطقة ببعث الاستبداد، والحقق وشن الحرب التي لا هوادة فيها ضد الظلم، والحكم المطق، يقول الأفغاني رحمه الله: (لا تحيا مصر، ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منها رجلاً قوياً عادلاً، يحكم بأهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان، لأن بالقوة المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة، وحكم مصر بأهلها إنما أعني به الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح).

ويسترد في نفس المقال فيقول:

(كأن القوة الفرعونية أخذت على الدهر عهداً أن لا تبرح وادي النيل، فكلمنا قضى فرعون تقمص بآخر، وكلما انقرضت عائلة فرعونية ادعت إرثها عائلة، وجاءت ولو من وراء البحار، والتصقت بالنسب الفرعوني ولو بأقل مشابهة من خلق الغطرسة والتأله على الناس، وقد قال الله عن فرعون: (فاستخف قومه فأطاعوه)، عجيب هو نصيب المنتصر لمصر وللمصريين إذا مكث بين ظهرائهم، فموسى خرج منها خائفاً يترقب، متهماً موشى به من مظلوم نصره على ظالمه . وفرعون معبود فيها . ويوسف الصديق رُج به في السجن متهماً وهو لم يأت الفاحشة.. نعم في النتيجة صحص الحق وزهق الباطل، وسوف تخلص مصر لأهلها إذا هم علوا بالحزم، وهياؤا ما يلزم من العزم، وما يتطلبه حكم الذات من القوى.. إن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر، والاستقلال كذلك).¹⁰

⁹ انظر: مقال (مستبد عادل) للأستاذ سعيد رمضان المنشور في مجلة (المسلمون) الشهرية في العدد (الرابع والخامس)

الصادرين في محرم وصفر سنة 1376هـ. أغسطس وسبتمبر سنة 1956م.

¹⁰ انظر: خاطرات جمال الدين الأفغاني ل محمد باشا المخزومي ص 89، 90.

والحق أن نسبة هذه الفكرة لا تصح إلا للإمام الشيخ محمد عبده، فهو قائلها، إذ يقول رحمه الله شارحاً لهذه الفكرة ومطالباً بالمستبد العادل: (مستبد يكره المتناكرين على التعارف، ويلجأ الأهل إلى التراحم، ويقهر الجيران على التتاصف، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة. عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذي يحكمه، فان عرض حظ لنفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه.

يكفي لإبلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة، وهي سن مولود يبلغ الحلم، يولد فيها الفكر الصالح، وينمو تحت رعاية الولي الصالح، ويشد حتى يصرع من يصارعه، خمس عشرة سنة يثني فيها أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج، ومنها البتر والكي إذا اقتضت الحال، وينشئ فيها نفوس الصغار على ما يوجه العزيمة نحوه، ويسدد نياتهم بالتنقيف، يتعهدا كما يتعهد الفارس شجرة بضم أعواد مستقيمة إلى سوقها لتنمو على الاستقامة خمس عشرة سنة، تحشد له جمهوراً عظيماً من أعوان الإصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه، وناشئين شبوا وهم ينظرونه، وآخرين رهبوه فاتبعوه، وغيرهم رغبوا في فضله فجاروه.

حتى إذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف، وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف، وصح الشعور بالتعليل، واستقامت الأهواء بالتعديل أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع الضعيف قضمه، والناقة من المرض هضمه، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية، ثم بعد سنين تأتي مجالس الإدارة لا على أن تكون آلات تدار، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار، ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية، نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد أن يشهد هذا الأمر من بدايته إلى نهايته، ولكن الخطوة الأولى هي التي لها ما بعدها، ويكفي لمدتها خمس عشرة سنة، وما هي بكثير في تربية أمة (بفتح الأول) فضلاً عن أمة.

هل يعدم الشرق كله مستبدا من أهله، عادلا في قومه، يتمكن به العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرنا؟!¹¹

ثانيا: وحدة الأمة:

اختلف الناس كثيرا في جمال الدين الأفغاني، هل هو سني أم شيعي؟ وهل هو أفغاني أم إيراني؟ وهل هو رجل دين أم رجل سياسة؟ وهل وهل؟ وكل هذه الاختلافات سببها: أن الرجل تعالى على المذاهب الضيقة، وعلى الخلافات السطحية التي تفرق الأمة شذر مذر، فكان مسلما بكل ما تعنيه كلمة مسلم، من جامع مانع يحوي كل المذاهب والفلسفات في وعاء الإسلام الشامل.

ولذا اتجه الأفغاني إلى العمل على وحدة هذه الأمة، والقضاء على كل ما يفرقها، سواء كان سبب التفرقة سياسيا أم فكريا، داخليا أم خارجيا. فكان من قواعد الإصلاح التي وضعها الأفغاني . رحمه الله . : (وجوب السعي لجمع المسلمين، والتأليف بين فرقتهم التي يجمعها الإيمان بالقرآن المجيد المعصوم، ورسالة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، والاستعانة على ذلك بالسياسة التي كانت السبب الأول لهذا التفرق الذي ألبس بعد ذلك لباس الدين، ولكن كما يلبس الفرو مقلوبا فكانت سبب ضعف جميع الفرق، ومن أهم أسباب ضعفهم وسلب الأجنبي لملكهم).¹²

وأول ما ارتكز عليه الأفغاني للعمل على وحدة الأمة، عنصر العاطفة الجارفة التي بداخل هذه الأمة، وهي عاطفة حب هذه الأمة لدينها، وحرصها على كل مسلم أن يظل دوما داخل حظيرة الإسلام، وقلقها على أي مسلم يشتم منه رائحة الخروج، أو التشكك في هذا الدين، سواء بشيطان داخلي، أو شيطان خارجي، يقول

¹¹ انظر: مجلة (النذير) الأسبوعية العدد (4) من السنة الأولى الصادر في يوم الاثنين الموافق 21 من ربيع الآخر سنة 1357هـ.

¹² انظر: مجلة (المنار) لمحمد رشيد رضا المجلد التاسع والعشرون العدد التاسع.

الأفغاني: (إن للمسلمين سترة في دينهم، وقوة في إيمانهم، وثباتا على يقينهم، يباهون بها من عداهم من الملل، وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض، ومما رسخ في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفاية لسعادة الدارين. ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه مما يشفقون عليه من الموت والفناء، وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم، حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الأرض عالما كان أو جاهلا أن واحدا ممن وسم بسمة الإسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه، رأيت من يصل إليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقة والاسترجاع، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به، بل وعلى جميع من يشاركه في دينه، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئتين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب، ودمه من الغليان، ويستفزه الغضب، ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب).¹³

وقد اتجه جمال الدين الأفغاني في سعيه لوحدة الأمة عدة اتجاهات، واتخذ سبلا كثيرة للوصول إلى هذا الهدف، فبدأ أول ما بدأ بالعمل على الوحدة الفكرية للأمة، وإذابة ما بينها من خلافات في فروع الدين، والتي ضخمها البعض حتى جعلها سدا منيعا يصعب تجاوزه، وتركت رواسبها في نفوس العامة من المسلمين.

1. الوحدة الفكرية:

وتتمثل في التقريب بين المذاهب الإسلامية، ويعتبر الأفغاني من أوائل علماء المسلمين المعاصرين دعوة للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وبخاصة السنة والشيعية، فقد استنكر جمال الدين الأفغاني انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة، وسعى إلى إزالة الخلاف بين الفريقين متهما بعض الملوك السنيين بتهويل أمر الشيعة في

¹³ انظر: مقال (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) للأفغاني بمجلة (العروة الوثقى) في عدد 14 جمادى الثانية سنة 1301هـ. 10 إبريل سنة 1884م. نقلا عن: جمال الدين الأفغاني لعبد الرحمن الرفاعي ص 86، 87.

زمانه لكسب ود العوام، ولا يجد مبررا لاستمرار الانقسام بين المسلمين بسبب خلاف سياسي عفى عليه الزمن. فهو يقول: "قالملوك من السنيين هولوا، وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة وعزوبات عجيبة على شيعة أهل البيت، ليتسنى لهم بذلك تقريب الأحزاب، وتجيش الجيوش ليقتل المسلمون بعضهم بعضا (بحجة الشيعة والسنة)، وجميعهم يؤمنون بالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وعلى آله).

ثم يسعى الأفغاني للتقريب بين الفريقين متناولا قضية في غاية الحساسية بين الفريقين، وبخاصة عند الشيعة، وهو مسألة تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه والانتصار له يوم قتاله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وخروجه عليه، فيقول: "قلو سلمنا أنه كان في ذلك الزمن مفيدا، أو ينتظر من ورائه نفعا لإحقاق حق أو إبطال باطل، فالיום نرى أن بقاء هذه النعرة، والتمسك بهذه القضية التي مضى أمرها، وانقضى مع أمة قد خلت، ليس فيها إلا محض الضرر، وتفكيك عُرى الوحدة الإسلامية".¹⁴

الجامعة الإسلامية:

كما سلك الأفغاني سبيلا هاما لوحدة المسلمين العملية، وهو الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وهي دعوة شابها كثير من اللغظ، وعدم الوضوح والتشويش، وبخاصة عند بعض من عاصروا هذه الدعوة، وما بعدها.

(دعوة الجامعة الإسلامية تعني: أن للإنسان المسلم انتماء إسلاميا يحدد هويته، وهوية الكيان السياسي والحضاري الذي يمنحه الولاء، وهذا الانتماء الإسلامي له مردود يتجسد في خيارات:

¹⁴ انظر: الأعمال الكاملة للأفغاني ص 330 بتحقيق د. محمد عمارة. نقلا عن: الاتجاهات الفكرية عند العرب لعلي المحافضة ص 77، 78.

فهو يعني: 1- رفض الوقوف بفكرة (الوطن) عند حدود دائرة (الإقليم)، بل ويتجاوز دائرة (الوطن القومي العربي) إلى (عالم الإسلام) الذي يضم الأقاليم والقوميات.

وهو يعني: 2- وجود (طابع حضاري) لهذا الانتماء الإسلامي، فعلاقات الأقاليم الإسلامية والقوميات التي يضمها عالم الإسلام لا تقف عند حدود حسن الجوار، أو المصالح الأمنية الاقتصادية، وإنما تعني فوق ذلك: وجود (وحدة في الحضارة الإسلامية) تجعل من عالم الإسلام هذا بأقاليمه وقومياته منظومة حضارية متميزة بين الحضارات العريقة القائمة على ظهر الكوكب الأرضي في العصر الحديث الذي نعيش فيه.¹⁵

وهذا الانتماء لا يعني وجود السلطة الدينية التي كانت موجودة في العالم الغربي.

وقد كتب الأفغاني كثيرا في الجامعة الإسلامية،

نقد الجابري للأفغاني في جدوى إصلاحه السياسي:

وقد وجه أحد المفكرين المعاصرين وهو الدكتور الجابري، نقدا في جدوى إصلاح الأفغاني، وشبهه تشبيها قاسيا في إصلاحه، فقال: (هناك ما يشبه أن يكون قانونا عاما يحكم العمل الدعوي، دينيا كان أو اجتماعيا أو سياسيا، يمكن التعبير عنه بما يلي: إن التعبئة، تعبئة الجماهير بلغتنا المعاصرة أو (العامة) بالمصطلح القديم، تنتقل إلى احتراق ذاتي إذا لم يتبعها تفريغ ملائم وسريع في المكان الملائم.

ذلك ما آلت إليه الدعوة الإصلاحية التي قام بها جمال الدين الأفغاني ومحمد

عبد. ¹⁶

¹⁵ انظر: جمال الدين الأفغاني المفترى عليه للدكتور محمد عمارة ص 161، 162.

¹⁶ انظر: في نقد الحاجة إلى الإصلاح للدكتور محمد عابد الجابري ص 41.

لقد وظف جمال الدين الأفغاني الدين من أجل السياسة، مما ابتعد بمشروعه الاستنهاضي عن النهضة، بمعنى الإصلاح والتجديد، وانزلق به إلى منطق السياسة. ولكن المنطق السياسي عند جمال الدين كان ضعيفا، إن لم نقل منعما بالمرّة: لقد جند جمال الدين نفسه لحمل أمم الشرق على النهوض ضد الغرب المستعمر، وأيضاً ضد حكامها الذين يهادنون الغرب، ويتعاونون معه، ولكنه لم يكن يمتلك أي مشروع سياسي بديل! فماذا بعد النهوض والثورة؟ وما شكل الحكم الذي يجب إقامته؟ هل حكومة للعالم الإسلامي بأجمعه تحت الخلافة العثمانية أم حكومة إقليمية في كل قطر من الأقطار العربية الإسلامية ترتبط بغيرها من حكومات بلاد الإسلام بروابط ما؟ وما نوع هذه الروابط؟ وما هي الطريقة التي يجب اعتمادها في اختيار الحكام... إلخ؟ تلك أسئلة لا نجد لها جواباً عند جمال الدين.¹⁷

والحقيقة أن الدكتور الجابري لم يكن مصيباً فيما ذهب إليه، ونرد على ما ذكره من عدة نقاط:

أولاً: أن الأفغاني جاء في مرحلة حرجة من تاريخ الأمة، وقد اتسع الخرق على الراقع، ووجد الرجل نفسه أمام حالة مزريّة للأمة الإسلامية فكرياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، فبذل جهده قدر استطاعته في كل ميدان من هذه الميادين، ويكفيه شرفاً أنه مطلق الشرارة الأولى في يقظة الأمة وصحوتها، يقول المفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي: (في هدأة الليل، وفي سبات الأمة الإسلامية العميق: انبعث من بلاد الأفغان صوت ينادي بفجر جديد، صوت ينادي: حي على الفلاح، فكان رجعه في كل مكان، إنه صوت جمال الدين الأفغاني، موقظ هذه الأمة إلى نهضة جديدة، ويوم جديد).¹⁸

¹⁷ انظر: المصدر السابق ص 43.

¹⁸ انظر: شروط النهضة لمالك بن نبي ص 22.

ويقول عبد الرحمن الرافعي: (فهو أول زعيم للحرية في الشرق، وأول باعث نهضته الحديثة، ولئن لم يشاهد ثمار دعوته وجهوده فحسبه أنه غارس البذرة الأولى للحركات القومية التي ظهرت في الشرق، منذ نحو تسعين سنة إلى اليوم، وإلى ما شاء الله، وإذا هو لم يشهد نجاح دعوته قبل موته فليس مرجع ذلك إليه، لأنه قد أدى رسالته على أتم ما يؤديه الزعماء المخلصون، ولكن عاكسته الأقدار واعترضت سبيله عقبات جمة، بعضها من مكاييد الدول الاستعمارية، وخاصة الدولة الإنجليزية، وبعضها من خذلان ملوك الشرق وأمراؤه لدعوته واضطهادهم إياه.¹⁹

ويقول فيلسوف الإسلام العظيم محمد إقبال: (.. ولكن الرجل الذي أدرك تمام الإدراك أهمية هذا العبء وفداحته، وكان دقيق البصر بالمعنى العميق لتاريخ الفكر والحياة في الإسلام، جامعا إلى ذلك أفقا واسعا نشأ عن خبرته الواسعة بالرجال والأحوال، خبرة تجعل منه همزة الوصل بين الماضي والمستقبل: هو جمال الدين الأفغاني. ولو أن نشاطه الموزع الذي لم يعرف الكلال اقتصر بتمامه على الإسلام بوصفه نظاما لعقيدة الإنسان وخلقه ومسلكه في الحياة، لو أنه اقتصر على ذلك لكان العالم الإسلامي أقوى أساسا من الناحية العقلية مما هو عليه اليوم).²⁰

ثانيا: أثر جمال الدين الأفغاني في كل الحركات التي جاءت بعده واضح جدا، سواء على مستوى الحركات السياسية، أم على مستوى الحركات الفكرية، ففي السياسة رأينا نضال تلامذته والمتأثرين بفكره، كسعد زغلول، ومصطفى كامل، والكواكبي، وغيرهم.

ثالثا: مسألة التفصيل في البرامج السياسية في الغالب لا تطلب من المنظر للثورة قبل قيامها ونجاحها، وكذلك الحركات الجهادية التي تتفاح الاستعمار، لم نجد حركة واحدة أعدت برنامجا عن شكل الحكم بعد تحررها، هذا أمر عسير، إذ التحدي

¹⁹ انظر: جمال الدين الأفغاني.. باعث نهضة الشرق لعبد الرحمن الرافعي ص178.

²⁰ انظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام لمحمد إقبال ص 111.

الأول الذي يواجهها هو التخلص من ربة الاستبداد الداخلي، والاستعمار الخارجي، فهو واجب الوقت، لا التظير لما بعد النجاح والتفوق، وكثير من البرامج التفصيلية يأتي بعد قيام الثورات لا قبلها.

رابعاً: حتى هذه التفاصيل التي أثارها الدكتور الجابري عن شكل الحكم الذي يريده الأفغاني فيبدو أنه غير مطلع الاطلاع الكافي على تراث الرجل، ففي تراثه تفاصيل عن شكل الحكم، وقد مال رحمه الله في أدبياته المنشورة إلى الحكم النيابي الدستوري. يقول رحمه الله: (لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً، يحكمه بأهله، على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان).

لأن بالقوة المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة.

وحكم مصر بأهلها إنما أعني به الاشتراك الأهلي بالحكم الدستوري الصحيح. أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابي الشوري فهو أيسر مطلباً، وأقرب منالاً، إذ يكفي فيه أحياناً إرشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه فيفعله ويشرك معه أمته ورعيته.²¹

وغير هذه التفاصيل نجدها مبنوثة في مقالات الرجل ودراساته، وقد كان للأفغاني دور بارز في نمو الحركة الدستورية في إيران، على يد تلامذة الأفغاني بعد مقتل الشاه ناصر الدين.²²

²¹ انظر: الأعمال الكاملة للأفغاني بتحقيق د. محمد عمارة (2/332،333).

²² لمزيد من التفصيل حول هذه النقطة انظر: جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث للدكتور عبد

الباسط محمد حسن ص 119-138.

مراجع البحث

- الاتجاهات الفكرية عند العرب لعلي المحافظة طبعة: الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت. 1983م.
- الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الأولى: 1981م.
- تطور المجتمع العربي في العصر الحديث للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس. الناشر: مكتبة الشباب. طبعة سنة: 1969م. 1970م.
- جمال الدين الأفغاني باعث نهضة الشرق للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي. طبعة دار الكتاب العربي.
- جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث للدكتور عبد الباسط محمد حسن. طبعة: مكتبة وهبة. الأولى: سنة 1402هـ . 1982م.
- جمال الدين الأفغاني المفترى عليه للدكتور محمد عمارة. طبعة دار الشروق . الأولى. سنة: 1404هـ . 1984م.
- علل وأدوية للشيخ محمد الغزالي طبعة: مؤسسة دار العلوم . الدوحة. الأولى سنة: 1404هـ . 1984م.
- في نقد الحاجة إلى الإصلاح للدكتور محمد عابد الجابري طبعة: مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت. الأولى: 2005م.
- مجلة (المنار) مجلة شهرية يصدرها محمد رشيد رضا من القاهرة.
- مجلة (النذير) سنة 1357هـ. مجلة أسبوعية تصدرها جماعة الإخوان المسلمين بالقاهرة.



جمال الدين الأفغاني والإصلاح السياسي

مسلمون ثوار للدكتور محمد عمارة طبعة دار الشروق الثالثة، سنة: 1408هـ
.1988م.

للسهود الحضاري للأمة الإسلامية.. مشاريع الإسهاد الحضاري للدكتور عبد
المجيد النجار. طبعة دار الغرب. الأولى: سنة 1999م.

يقدم الشيخ عصام تميم